(إن ا يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور [22] إن أنت إلا نذير [23]) A كان القرآن وهو وأصدقه كلام بأبلغ الانتفاع حرمان هو الكفر عن نشأ حرمان أعظم كان لما E حال الكافر الشبيه بالموت أوضح شبها به في عدم انتفاعه بالقرآن وإعراضه عن سماعه (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وكان حال المؤمنين بعكس ذلك إذ تلقوا القرآن ودرسوه وتفقهوا فيه (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم ا) وأعقب تمثيل حال المؤمنين والكافرين بحال الأحياء والأموات بتوجيه الخطاب إلى النبي A معذرة له في التبليغ للفريقين وفي عدم قبول تبليغه لدى أحد الفريقين وتسلية له عن ضياع وابل نصحه في سباخ قلوب الكافرين فقيل له : إن قبول الذين قبلوا الهدى واستمعوا إليه كان بتهيئة ا تعالى نفوسهم لقبول الذكر والعلم وإن عدم انتفاع المعرضين بذلك هو بسبب موت قلوبهم فكأنهم الأموات في القبور وأنت لا تستطيع أن تسمع الأموات فجاء قوله (إن ا يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور) على مقابلة قوله (وما يستوي الأحياء ولا الأموات) مقابلة اللف بالنشر المرتب .

فجملة (إن ا يسمع من يشاء) تعليل لجملة (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) لأن معنى القصر ينحل إلى إثبات ونفي فكان مفيدا فريقين : فريقا انتفع بالإنذار وفريقا لم ينتفع فعلل ذلك ب (إن ا يسمع من يشاء) .

وقوله (وما أنت بمسمع من في القبور) إشارة إلى الذين لم يشأ ا أن يسمعهم إنذارك .

واستعير (من في القبور) للذين لم تنفع فيهم النذر وعبر عن الأموات ب (من في القبور) لأن من في القبور أعرق في الابتعاد عن بلوغ الأصوات لأن بينهم وبين المنادى حاجز الأرض . فهذا إطناب أفاد معنى لا يفيده الإيجاز بأن يقال : وما أنت بمسمع الموتى .

وجيء بصيغة الجمع (الأحياء) و (الأموات) تفننا في الكلام بعد أن أورد الأعمى والبصير بالإفراد لأن المفرد والجمع في المعرف بلام الجنس سواء إذا كان اسما له أفراد بخلاف النور والظل والحرور وأما جمع (الظلمات) فقد علمت وجهه آنفا .

وجملة (إن أنت إلا نذير) أفادت قصرا إضافيا بالنسبة إلى معالجة تسميعهم الحق أي أنت نذير للمشابهين من في القبور ولست بمدخل الإيمان إلى قلوبهم وهذا مسوق مساق المعذرة للنبي A وتسليته إذا كان مهتما من عدم إيمانهم .

والنذير : المنبئ عن توقع حدوث مكروه أو مؤلم .

والاقتصار على وصفه بالنذير لأن مساق الكلام على المصممين على الكفر .

(إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير [24]) استئناف ثناء على النبي A وتنويه به بالإسلام . وفيه دفع توهم أن يكون قصره على النذارة قصرا حقيقا لتبين أن قصره على النذارة بالنسبة للمشركين الذين شابه حالهم حال أصحاب القبور أي أن رسالتك تجمع بشارة ونذارة فالبشارة لمن قبل الهدى والنذارة لمن أعرض عنه وكل ذلك حق لأن الجزاء على حسب القبول فهي رسالة ملابسة للحق ووضع الأشياء مواضعها .

فقوله (بالحق) إما حال من ضمير المتكلم في (أرسلناك) أي محقين غير لاعبين أو من كاف الخطاب أي محقا أنت غير كاذب أو صفة لمصدر محذوف أي إرسالا ملابسا بالحق لا يشوبه شيء من الباطل . وتقدم نظير هذه الجملة في سورة البقرة .

وقوله (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) إبطال لاستبعاد المشركين أن يرسل ا إلى الناس بشرا منهم فإن تلك الشبهة كانت من أعظم ما صدهم عن التصديق به فلذلك أتبعت دلائل الرسالة بإبطال الشبهة الحاجبة على حد قوله تعالى (قل ما كنت بدعا من الرسل) .

وأيضا في ذلك تسفيه لأحلامهم إذ رضوا أن يكونوا دون غيرهم من الأمم التي شرفت بالرسالة